

فنون الأدب

للمؤلف: عبد الحميد حسن

(٢) (١)

غايات الأدب

هل نحن في حاجة إلى هذه الألوان التي يعرضها الأدباء والشعراء والكتاب من نثر ونظم في المدح والاستعطاف والفخر والحماسة والوصف ونحو ذلك من فنون القول التي يسرد لها علماء الأدب النماذج المختلفة؟ وماذا ينبغي للأدباء من وراء ما يقولون أو يسطرون؟ أم يقصدون إلى الترفيه عن أنفسهم وإرضاء ميول ونزعات فيهم وتلبية نداء قلبي أو حافز باطني أو ظاهري؟ أم هم يقصدون إلى إمتاع القاريء وتسليته بعرض الطرائف المعنوية أو بإرسال الأساليب البيانية والعبارات التي تنطوي على فنون من البلاغة ومظاهر من رائع التعبير وجيده؟ وهل الغاية التي يرمون إليها ذات صلة بالحياة أو بالفطرة الإنسانية وأتجاهاتها؟ وإذا لم تكن كذلك في بعض الأحوال أو أغلبها فماذا يجب أن تكون الغاية؟

هذا هو الذي نريد أن نعرض له لنعرف غاية الأدب وصلته بالحياة وبالنفس. وإن تحديد الغاية من الأدب يرسم لنا النهج واضحاً، ويرشدنا حين نتصدى للنقد الأدبي وللحكم على الأدب وفنونه وعلى الأدباء ومكانتهم وأثرهم.

(١) راجع المقال الأول في العدد الثاني من السنة السادسة

أشرنا في كلمتنا السابقة إلى أن الأدب ينبع من النفس ومظاهرها ومن البيئة بنوعها الطبيعية والاجتماعية ، ولنبسط هذا بعض البسط لعلنا نصل إلى ارتباط هذا الانتاج الأدبي بالحياة فيهدينا ذلك إلى أن نعرف الغاية التي اتجه إليها الأدب أو التي يجب أن يتجه إليها :

النفس الإنسانية ميدان تسرح فيه الخواطر وتبرز الفكر ، وتتموج أضواء من المشاعر وأشعة من الحقائق ، وتجول آمال يهيم الإنسان في شعابها ، وآلام هي مبعث الشكوى والحنين ، وفي البيئة التي تحيط بالإنسان من المعاني ما يسبح ساطعا يرتقب صفحة ينعكس عليها ، وما يهيم كالطائر يبحث عن وكر أو عش يستقر فيه ليفرخ ، وما يكمن هادئا وادعا ينتظر من يهدي الناس إليه ليزدادوا بالتعرف إليه استمتاعا بمعاني الحياة وطرائفها ، ولتزداد حياتهم نشاطا وجدة ، وفي المظاهر التي خلقها الله من رائع المعاني ما فيه غذاء للنفوس وحافز للمواهب وموقظ للهمم ، وفيها من جليل الحقائق ما كان له أعظم الشأن في بني الإنسان وماضيهم وحاضرهم ، ولا يزال في ثنايا هذا الكون من المعاني ما فيه بلاغ للفكرين .

هذا ينبوع المتدفق من المعاني التي تسبح في النفس وتزخر بها الحياة هو الذخر الذي تعيش به الإنسانية وتسير في ضوئه ، وهو الخيوط التي تنسج منها حياتنا ، وهو الذي يمتاز به الإنسان عن غيره من الكائنات ، وعلى قدر ماتنا نال نفسه من هذه المعاني تكون حياته سعة وضيقا وتموجا وركودا .

وهذه المعاني منها ما يتبع من دخيلة النفس ، ومنها ما يهبط عليها وحيه من البيئة ثم يصهر أو ينعكس أو يترعرع ويثمر ويتجلى للسامع أو الرائي عن طريق من طرق التعبير . وللنفس الإنسانية في جميع هذه الأحوال شأن في هذه المعاني ، فعنها تصدر ومنها تنبع ، وعن طريقها تملى الطبيعة وتوحى بالجديد ، ثم يصوغها الإنسان بطريقة من الطرق التي ألفها والتي جرت بها أساليب

الحياة كالتصوير والرسم والنقش والحفر والموسيقى واللغة ، وكلها وسائل فنية للتعبير ، فاذا صيغت هذه المعاني في صورة من أساليب اللغة فذلك هو الأدب . فالأدب إذن ينبع من النفس ويعبر عن نزعاتها ، ويصور ما يجول في نواحيها وما ينعكس على صفحاتها مما تمر به أو يمر بها من معاني الحياة وألوانها . ومعلوم أن للنفس مظاهر ثلاثة وهي الفكر والوجدان والإرادة ، وكل منها جولات في شتى نواحي الحياة ومقاصدها تتجلى فيها ألوان من الجمال وفنون من المعاني ودوافع إلى جليل الأعمال ونيلها ، وتوجيه إلى أقوم السبل في الفكر والعمل ، وتقد يرسم خير الطرق للإنسان ، وألوان من الجد والهزل والمرح والسرور والألم ، وحوادث عظام تهز قلب الإنسانية وتغير وجهتها ، إلى غير ذلك من الخواطر ومناحي الفكر وبواعث الخير ووجوه الجمال .

والأدب هو اللسان الناطق بكل هذا . ولعله مما لا يحتمل الشك أن الحياة لا تكون يانعة الجنى زاهرة مخضرة إذا خلت من كل هذه المعاني والألوان النفسية ، أو بعبارة أخرى إذا خلت من الأدب ، إذن خلت من قوة تعمربها القلوب ومن ضوء يشع في أرجاء المجتمع ، فالأدب هو باعث كل هذا أو هو الذي يصور لنا معاني الحياة وخلجات النفس .

نستطيع بعد كل هذا أن نقول إن غايات الأدب تلازم غايات الحياة في نيل مقاصدها وجليل معانيها ، وتتصل بغايات الإنسان في تفكيره وعمله ومشاعره . فالأدب ملازم للحياة ولا غنى لها عنه ، ولا غنى له عنها . فالحياة تستضيء بالأدب وتلجأ إليه لإظهار الكامن من معانيها والاشادة بمظاهر جمالها ونواحي الخير فيها ، والأدب لا يتجلى إلا في معاني الحياة وفيما تنطوي عليه القلوب ، فالصلة وثيقة بين الأدب والحياة والفطرة الإنسانية ، والرابطة متينة بين غايات الأدب وغايات الحياة .

ولنعد إلى ما أشرنا إليه من المظاهر الثلاثة للشعور لتعرف غايتها وصلة

هذه الغاية بالغاية من الأدب ومن الحياة :

إن غاية الفكر هي تفهم ما في هذا العالم تفهما ناصعا سليما من الانحراف بعيدا عن الاعوجاج مرتكزا على الصواب والحق . ومجال الوجدان هو النواحي الحساسة من الحياة ومظاهر الكون وما فيها مما يبعث الإعجاب والسرور أو الاكتئاب والألم ، وما يثير الانفعال ويوقظ العواطف . وغايته هي الاهتداء إلى نواحي الروعة والجمال في الكون وفي تصرفات الإنسان وخلقه وسلوكه فما كان من هذا منسجما جميلا يبعث الإعجاب والارتياح ، وما نبا عن ذلك أثار اشمئزا وألما . وميدان الإرادة هي الأعمال التي يرغب الإنسان في عظامتها ويسعى لتحقيقها ، ويأنف من دنسها وحقيرتها ويعمل على اجتنابها ، وغايته في ذلك إذا حسنت طويته وصفت سريره إنما هي الخير .

فالغايات النبيلة والمثل العليا للإنسانية هي الحق والخير والجمال ، وهي غايات تسمو بالحياة ، وترسم لها أقوم السبل ، وإذا اتجه إليها الإنسان فقد سلك طريقا واضحا القصد نبيلاً . وإذا كان الأدب إنما ينبع من الحياة ومن النفس البشرية ، فإن الميادين التي ينبغي أن يحول فيها إنما هي ميادين هذه المثل العليا للحق والخير والجمال . والأديب هو أحد القادة الذين يحملون لواء التوجيه والإرشاد إلى هذه المقاصد العالية . وليس هو وحده الذي يقود الزمام ، فهناك رجال الفنون الأخرى كاللغة والموسيقى والتصوير ولهم في هذا الميدان جولة وأثر في توجيه الإنسانية في بعض النواحي ، وهناك من يعملون لهذه الغايات من طرق أخرى نظرية وعملية ، ولكن الأدب أو أدب اللغة يسير في هذا الميدان وعدته اللسان أو القلم ، وغايته أن يحفز إلى العمل ويصور محاسن الحياة فيرغب فيها العاملون ، ويظهر مساوئها للتنفير منها ومن يتصفون بها ، ويسن خير الخلال لتتجلى لمن ينشدون الخير ويبغرون المكارم . ولعل أبا تمام قصد شيئا من هذا حين قال :

ولولا خلال سنها الشعر مادي بغاة الندى من أين توتى المكارم

هذه هي الغايات التي تنشدتها الإنسانية وتأمل من الأدب أن يعاونها على تحقيقها والتنويه بها، وإن الأدباء لمن خير الأعوان في الاضطلاع بهذا إذا سلمت طوبتهم وسمت متمصدهم، أما إذا انحرفوا وهبطت نفوسهم فانهم يصبحون من أعوان الغواية وعوامل الشر والقيادة النابية عن الجادة، ولعل فريقا من هؤلاء هم الذين أشارت إليهم الآية الكريمة في قوله تعالى « والشعراء يتبعهم الغاؤون ». ألم تر أنهم في كل واد يهيمون وأنهم يقولون مالا يفعلون .

وهذه الغايات الثلاث وهي الحق والخير والجمال قد تكون غير متعادلة في قسطها من اتجاه الأدب وفنونه وفي نصيبها من جهود الأدباء، فمن أنواع الأدب ما يبرز فيه الجمال والخيال، ولعل الشعر أوفى حظا في هذا من النثر، ومنها ما تتجلى فيه دواعي الخير والحث على جليل الأعمال، ومنها ما تصطبغ فيه دوافع الإقدام وتلتحم عوامل الشجاعة ظافرة، أو تبدو مظاهر الرهبة والإحجام متعثرة تتوارى من سوء ما يحيق بها أو تفر من ميدان الكفاح والدفاع.

وليس غريبا أن تختلف النفوس والبيئات في حظها من هذه الغايات بل إن الاختلاف هو السنة التي لا تبدل لها، فالمعلوم أن المظاهر الثلاثة للشعور وهي الفكر والوجدان والإرادة - وهي التي تتجه إلى الغايات التي نشير إليها - ليست متوازنة في جميع الأفراد، ولا تنمو بقدر واحد في جميع البيئات، فمن الأشخاص من غلبت عليهم ناحية منها فكان مثلهم الأعلى مركزا في فكر يرمي إلى الحق، أو في إرادة تميل إلى الخير، أو في وجدان يبحث عن الجمال في جميع مظاهره، ومنهم من كان حظهم في هذه النواحي جميعها ضئيلا أو منحرفا عن الطريق القويم، ومن البيئات ما يسمو بأحد هذه المظاهر أو

يهبط بها ، وهذا يصل بنا إلى أنواع من الأدباء يختلفون في اتجاههم وفي مثلهم العليا وفي حظهم من الإجابة ، وإلى فنون من الأدب تختلف قوة وضعفا ، ولهذا النتيجة شأن في المفاضلة بين فنون الأدب وفي الموازنة بين الأدباء . ولها أيضا صلة بمعايير الأدب ومقاييسه ، وسنعرض لهذا في فرصة أخرى . وحسبنا الآن أن نصل إلى النتيجة التي قصدنا إليها وهي أن الأدب يجب أن تكون له غاية نبيلة ، وأن هذه الغاية إنما تنبع من الغايات النبيلة للإنسان ومن المثل العليا للحياة .

فاذا ارتضينا هذه الغايات التي أشرنا إليها استطعنا أن نسير في ضوئها ونتخذ منها ميزانا للنقد ومعيارا للأدب بعد أن نتناولها بشيء من الإيضاح .

عبدالمجيد مبرور